خصوصية الهوية الجزائرية

- باية سي يوسف : جامعة الجزائر 3
كلية علوم الإعلام و الاتصال - الجزائر
- ساعد شيحاني : جامعة الجزائر 3
كلية علوم الإعلام و الاتصال - الجزائر

الملخص

تستهدف هذه المداخلة الموسوعة بـ : خصوصية الهوية الجزائرية ، تحليل و مناقشة موضوع الهوية الجزائرية من حيث إبراز الدّور الذي تؤديه في تفاعلها مع مختلف العناصر المكوّنة لها في بناء الشخصية الجزائرية ، و ذلك باتّباع أساليب البحث و التحليل ثم النقاش بين مجموعة من التيارات و الإتجاهات الفكرية . وعليه يتوجب عينا الوقوف على طبيعة الهوية الجزائرية و مختلف المكوّنات المشكلة لها و المؤثرة في تطوّرها .

الكلمات المفتاحية : الهوية – الخصوصية – المجتمع الجزائري .

Alegrian Identity character

This Paper entitled « The character of Algerian Identity » is an attempt to analyse and dis-cuss the different element bases of the Algerian personality and their interactions . To reach this end we have to use an adequate analytic methods and focus on their development from historical approach . Keywords : Identity , character , Algerian society .

مقدمة

سنحاول من خلال مداخلتنا الموسوعة بـ : " خصوصية الهوية الجزائرية " استكشاف ماهية الهوية الجزائرية ، كإشكالية محورية تمكننا من الاقتراب من طبيعة الهوية الجزائرية و ما تمتاز به من خصوصيات تبلور صورة المجتمع الجزائري .

و تتفرع عن هذه الإشكالية عدّة تساؤلات أهمها :

- ماهي مكّونات الهوية الجزائرية ؟
- ما مدى تفاعل هذه المكونات مع طبيعة المجتمع الجزائري ؟
- ماهي آثار و تجليات كل عنصر من عناصر الهوية في ملامح الأمة الجزائرية ؟

نورد في هذه السياق جملة من الآراء المعبّرة عن أهم العناصر المشكلة للهوية ، و عليه سنباشر ذلك من خلال :

1- الدين

إذا رجعنا إلى تعريف الدين ، فنجد " محمد الزحيلي " يقول : (الدين هو الحالة النفسية و العقلية و الوجدانية التي يتّصف بها شخص معين ، و نسميها التدين ، أو هو مجموعة من المبادئ والقيم التي تدين بها أمة أو جماعة اعتقادًا أو عملاً ، و تتمثل في عادات خارجية أو آثار اجتماعية) . [1]

إن هذا التعريف الذي يقترحه " الزحيلي " يعبر بقوّة و بوضوح عن أهمية عنصر الدين في تشكيل شخصية الفرد وفي التأثير المباشر و العميق في حياة الجماعة ، وفي إطار الحديث عن هذا التأثير القوي للدين ، نجد " كارل ماركس " يرى : (أنّ الدين أفيون الشعوب) . [2]

و هنا لا يهّمنا رأي " كارل ماركس " حول هذا التأثير إن كان سلبا أو إيجابًا ، بقدر ما يهمّنا تأكيده لهذا التأثير الذي يمارسه الدين في المجتمعات ، و بذلك يكون عنصرًا مؤثرًا في تشكيل و تكوين هوية الجماعة ، كما تؤكد ذلك " إبراهيم لطيفة خضر " بقولها : (تعتبر المعتقدات الدينية من الثوابت و أهم عناصر الثقافة ، و لذلك تلعب المعتقدات الدينية دورًا هامًا في صناعة الثقافة و الرؤية للذات) . [3]

و في الحديث عن هذا الأثر أيضا ، فقد أشار كل من " الكسيس دي توكفيل " وأوغست كومت " إلى أن الدين يسهم في تعزيز اللحمة الأخلاقية في المجتمعات ، فالدين يربط ما بين الجماعات . [4] .

و في نفس السياق ، يشير " بن عبد الله محمد " إلى ذلك بقوله : (تتمثل وظيفة الدين في تقوية الأواصر التي تربط الفرد بالمجتمع الذي هو عضو فيه ، كما تهدف إلى تحقيق اندماجه في المجموعة الاجتماعية ، لأن الطقوس الدينية هي التي تقوّي في نظره إحساس الفرد بالانتماء إلى جماعته ، و تمكنها من أن تجدد دوريا المشاعر الخاصة بها وبوحدتها وتساعد على ربط الحاضر بالماضي) . [5]

و يضيف أيضا : (يتفق معظم الباحثين بأن الدين هو أحد الثوابت الثقافية الاجتماعية التي لم تتغير و لم تندثر و بقيت صامدة في ظل التقلبات الفكرية و الإيديولوجية و التطورات العلمية ، وهو عنصر بارز من العناصر المغذية للثقافة و المشكلة لعقل الإنسان ووجدانه و هويته وشخصيته . [6]

من خلال هذا ، قد تبرز لنا الأهمية التي يحظى بها الدين في صياغة الشكل الذي تبدو عليه الهوية ، باعتباره عنصرًا متغلغلاُ في النفس البشرية و في أعماق المجتمع ، و كذا باعتباره رافدًا من الروافد الأساسية التي تشكل ثقافة و عقل ووجدان و هوية و شخصية الإنسان.

إن الحديث عن المجتمع المغاربي عامة و المجتمع الجزائري على وجه الخصوص ، يفرض علينا الإنتقال من الحديث عن الدين بشكل عام للحديث عن الإسلام باعتباره الدين الأكثر انتشارًا في هذه الربوع ، فإذا كنّا قد لامسنا ذلك التأثير القوي للدين كما أشرنا إليه ، فإن الحديث عن الإسلام من منظور المؤمنين قد يأخذ أهمية أكبر ، ذلك لما ترسخ في اعتقاد المسلمين ما للدين من أهمية و أثر في حياة المسلم ، فها هو " محمد الزحيلي " يعرفه بقوله : (إنّ الدين عقيدة و شريعة ، أو عقيدة و نظام في الحياة ، فهو ليس مجرّد اعتقاد ، بل هو الإعتقاد الحق ، و الإيمان الصحيح الذي لا يشوبه شيء ، و هو ليس مجرد شريعة و نظام فحسب ، بل هو نظام ربّاني ، و شريعة إلهية لضمان الفوز في الدنيا و الآخرة . [7]

فمن خلال هذا التعريف ، يتأكد لدينا بأن الدين الإسلامي يتميز بتأثيره القوي و المباشر في توجيه سلوك الفرد و تنظيم علاقات الجماعة فيما بينها ، و قد يدفعنا ذلك للقول دون أن نخشى مبالغة بأن الدين الإسلامي وسط مجموع العناصر المشكلة للهوية هو العنصر القوى ، وفي هذا الصّدد يواصل « محمد الزحيلي » تأكيده لهذه الفكرة ، حيث يشير إلى : (إقامة الروابط الاجتماعية الحيّة كلها عن طريق الدين سواءً أكانت على نطاق الأسرة أم على مستوى الوطن أم على مستوى الأمم و الدول و الشعوب ، و يهدف الإسلام من ذلك أن يربط الفرد بالمجتمع و أن يغرس فيه الشعور بالولاء و ا لإنتماء . [8] و في نفس السياق ، يشير « محمد الهرماسي » قائلاً : (إلاّ أن أهمية الإسلام بالنسبة إلى المنطقة المغاربية خصوصًا ، و حضور ه المتزايد في الحياة الاجتماعية و الثقافية و حتى السياسية يجب ألاّ تحجب عنّا الفروقات العميقة بين جوهر الدين و بين تصورّات المسلمين عنه . [9] بهذا يؤكد الكاتب على قوة تأثير الإسلام في المنطقة المغاربية عامة ومنها الجزائر ، و يؤكد أيضا على مدى تغلغله في عمق المجتمع ، وفي مجمل مناخ الحياة الاجتماعية ، الثقافية و السياسية .

إن هذا التصريح « لمحمد الهرماسي » يضعنا أمام حقيقة مفادها مدى ارتباط المجتمع المغاربي عامة و الجزائر على وجه الخصوص بالديانة الإسلامية ، و أيضا قدرة الدين الإسلامي الحنيف على تلوين حياة المجتمع بلون خاص يحيل في جزئياته على الديانة الإسلامية ، و بذلك نلمس مدى تأثير الإسلام في هوية المجتمع الجزائري ، ذلك ما تؤكده « إبراهيم خضر » بقولها : (أما الإسلام فقد كان بالنسبة للذين أسلموا ، و تعرّبوا أو بالنسبة للذين أسلموا و لم يتعرّبوا دينًا و عقيدة و شريعة و نظامًا كاملاً للحياة ، يتعبدّون به إلى الله تعالى ، و بأحكامه ومبادئه و مثله و يسلكون في الحياة على الطريق الصواب ثم كان هذا الدين للذين تعرّبوا و لم يسلموا تاريخا مشتركا و ثقافة و لغة . [10] و في إطار الحديث عمّا للإسلام من تأثير على الأفراد و المجتمعات نجد « بن عبد الله محمد » ينقل مصرّحًا : (...في عالم الإسلام هو التأثير العميق للقرآن للقرد سواءً كان رجلا أو امرأة و هذا الأمر يعود تفسيره إلى التشبّع الذي يعرفه الطفل منذ صغره مهما كان انتماءه و رتبته ، و هكذا يتأكد ما لهذا التشبّع القرآني من قدرة على تمييز الفرد المسلم ، و يستمّر هذا التشبع الفردي الناجم عن الظاهرة القرآنية طيلة حياة المؤمن على المستوى الجماعي و الاجتماعي بوسائل متعدّدة و ممارسات شعائرية وتوجيهات دينية . [11]

ويؤكد الكاتب مرة أخرى عن تأثر الشخصية المغاربية بالإسلام بقوله : (فإذا عدنا إلى الشخصية المغاربية ، وجدنا أن الدين هو عنصر مهم من عناصر هذه الشخصية التي تصبغها بصبغتها ، و تجعل منها شخصية متميزة عن الشخصيات الأخرى ، و يكون الرجوع القوي لهذه الشخصية إلى الدين في نظر الكثير من الباحثين ، نظرا لما يوفره من اطمئنان نفسي وإحساس بالذات و بالهوية . [12]

بهذا ، يقدم لنا « بن عبد الله » تصريحًا واضحًا و مباشرًا عن كون العقيدة الإسلامية عنصرًا مهما من عناصر بناء الشخصية المغاربية عامة ، و المجتمع الجزائري على وجه الخصوص ،

وأصبح عنصرًا بارزًا في تكوينها و من ثم عنصرًا مهما من عناصر هويتها .

إن خاصية تقبّل المجتمع الجزائري للدين الإسلامي واحتضانه إلى درجة أصبح فيها يمثّل عنوانًا مهمًا من عناوين هويته ، و نسيجًا عضويًا ارتبط بموجبه هذا المجتمع ،و في هذا السياق ، يقول « سليمان عشراتي » (فقد استهوتهم روحيته ولاءمهم طابعه الحياتي الجماعي و شرطه الروحي التنظيمي ، فضلاً عن جوهره الديمقراطي الذي يتجسد في التشارك الفعلي اليومي في العبادات و في القيم و المزايا . [13]

هكذا ، تتضح لنا مدى العلاقة المتينة القائمة بين الدين الإسلامي و الهوية ، و هذا دليل على مدى تأثير الدين الإسلامي في هوية المجتمعات الإسلامية عامة و المجتمع الجزائري على وجه الخصوص ، و في نفس السياق ، يؤكد « عبد المالك مرتضى » على مدى هذا الترابط القائم بين المجتمع الجزائري و الدين الإسلامي بقوله : (بحيث أصبح من المستحيل تصور الشخصية الجزائرية مجردة عن الإسلام ، و ساعد على تأصيل هذا العنصر في شخصياتنا الوطنية ، قلّة اليهود و النصاري) . [14]

و بهذا ، يمكننا أن نقول بأن للدين علاقة وطيدة و تأثير واضح على مستوى تشكل الهوية ، وللإسلام تأثير أكبر و أهم على المجتمعات الإسلامية عامة و المجتمع الجزائري خاصة في تلوين هويته بألوانه الخاصة . و لعلّ فشل السياسة الاستعمارية في تفكيك عناصر الشخصية الجزائرية و محو هوية المجتمع من خلال سياساتها الاستعمارية المعتمدة منذ أن وطأت أقدام المستعمر هذه الأرض الطيّبة ، لدليل على مدى أثر الإسلام و فاعليته في دعم و تقوية هوية المجتمع ، ذلك ما يؤكده « مرتضى عبد المالك » بقوله : (يستطيع الباحث المتأمل أن يعتبر الدين الإسلامي من أقوى المقومات ، إن لم نقل أقواها التي ظلّت تغذي الشخصية الجزائرية وتصونها من الذوبان و المسخ) . [15]

إضافة إلى عنصر الدين و الذي يعدّ عنصرًا أساسيًا في تشكيل الهوية الجزائرية ، تتداخل عناصر أخرى في تكوينها ، تتضح من خلالها صورة و شكل الهويّة على النحو الآتي :

2- اللّغة :

تعدّ اللغة من بين الركائز الأساسية لمفهوم الهوية ، فهي تقوم بأدوار مهمة بحسب رأي « الشريف كرمة » الذي يذهب إلى القول : (إنّ اللغة فكر ووجدان و إرادة ، تتجلّى في المهارات و تؤدي وظائف التفكير و التعبير و التواصل . [16]

و في نفس السياق نجد « لطيفة إبراهيم خضر » تؤكد على أهمية اللغة بقولها : (و اللغة هي وسيلة التحاور و التخاطب بين شتى فئات المجتمع على تباينها ، فهي تقطع المسافات و تصل بين الأجيال و الشعوب ، و هي لهذا بمثابة العمود الفقري لوحدة الأمة و اللّحمة الأساسية و راء تماسكها باعتبارهما الحجر الأساسي في الإنتماء . [17] إنّ هذه المهام التي توكلها « لطيفة إبراهيم خضر » للّغة كفيلة بأن ترفعها إلى أعلى المراتب في سلم عناصر بناء هوية المجتمع ، دون أن ننسى وظيفة الإنتماء ، فالإنتماء هو لبّ مفهوم الهوية ، و كون اللغة تساهم في تبلور هذا الانتماء ، دليل على الأهمية التي تحظى بها في مجال تشكيل هوية الفرد و المجتمع معًا .

و يضيف « كرمة الشريف » في مجال توضيحه للمهام التي تقوم بها اللغة قائلا : (و اللغة رمز للتقايس المشترك ، وبها يتم توثيق روابط الوحدة الجماعية و تدوين سجل الأمة و حماية تاريخها و حفظ ذاكرتها ما يضمن التفاعل الحضاري بين الخلف و السلف) . [18]

بذلك نجده يؤكد مرة أخرى على الدور المهم الذي تقوم به اللغة في مجال تشكيل هوية المجتمع ، فمن بين المهام ، يشير إلى مهمة توطيد روابط الوحدة الجماعية ، و هو دور يوكل عمومًا إلى مفهوم الهوية ، فالجماعة التي تتميز بتلك الوحدة و تلك الروابط ما بين أفرادها ، نقول أنها ذات هوية موحدة ، و بالتالي فإن للّغة دور في إقامة جسور التواصل بين الأجيال ، وبذلك تتواصل ثقافة الجماعة و لا تندثر .

و في نفس السياق ، يشير « عز الدين صحراوي » بقوله : (يقول ليفي ستراوس في كتابه الآفاق الحزينة : إنّنا حين نقول الإنسان ، فإننا نعني اللغة و حين نقول اللغة ، فإننا نقصد المجتمع) . [19]

و بذلك يربط هذا الكائن باللغة ، ليوحي لنا بما قد تكون عليه اللغة من تعقيد من خلال ملازمتها للإنسان في جميع تفاعلاته داخل المجتمع ، و هو ما يصل إليه بقوله أنّ الحديث عن اللغة ما هو إلاّ صورة للحديث عن المجتمع بكل تعقيداته . من هنا نلمس أن اللغة و إن كانت في ظاهرها تبدو عنصرً بسطًا ، إلاً أن ارتباطها بمفهوم الهوية و طبيعة تفاعلها معه ، يجعلها على درجة من التعقيد ، نظرًا للآليات التي تسهم من خلالها في بناء هذه الهوية ، و بذلك يخلص « عز الدين صحراوي » إلى القول : (لذلك ، فإن البحث في اللغة هو بحث في الإنسان) . [20]

و لتوضيح هذا التعقيد الذي يكتنف اللغة ، يشير « بن عبد اله محمد » نقلا عن « نبيل علي » بقوله : (الجسد الواصل بين خصوصية الذات و عمومية الموضوع ، و هي التي توجه سلوك أفراده و جماعته و مؤسساته ، و هي القلعة الحصينة للهوية و الوحدة، بل اللغة هي اللذات و هي الهوية وهي المرآة التي ترى فيها كل أمة أهم مقومات شخصيتها و تجمع فيها مجمل خبراتها و رصيد مبادئها التي تكافح من أجلها . [21]

إن هذه المهام التي تحملها اللغة على عاتقها تبرز الأهمية التي تحظى بها في علاقتها بمفهوم الهوية ، لنتمكن من رسم ملامح هوية الجماعة ، لذلك تعتبر اللغة أداة ووسيلة وعي الأمة التاريخي ، و المحافظة عليها هو تدعيم لوجود الأمة و تأكيد لسيادتها و خصوصيتها. بهذا ترتبط اللغة بشكل مباشر بشخصية الأمة ، بكل ما تحتويه من عناصر ، و لتعميق مفهوم اللغة في علاقته بهوية الأمة ، نقول: إن اللغة ملتحمة أشد الالتحام بالعقيدة ، فكثيرًا ممّن يثيرون

مشكل اللغة في وقت من الأوقات ، إنّما يخفون عقائدية لم يكادوا يصرّحون بها علانية ، وعلماء اللسان يعرفون اليوم بتداخل موضوع اللغة و الإيديولوجيا إلى كلّ أنّ بعضهم ذهب إلى أنّ تعلم اية لغة من اللغات حتى اللغات العلمية ما هو في نهاية الأمر إلاّ تعلم لعقائدية الناطقين بتلك اللغة) . [22]

بتلك نلمس مدى الأهمية التي يبدو بها عنصر اللغة و في نفس الوقت مدى الخطورة التي يتمتع بها هذا العنصر ، حسب وصف « الشريف كرمة » لارتباطها بالإيديولوجيا .

حيث يقول (أن اللغة هي الفكر في حدّ ذاته ، فاختيار الجماعة للغة محّددة ، يعني مباشرة أنها إختارت الفكر الذي تتلبّسه ، و من ثمّ تكون قد حدّدت في نفس الوقت أحد الخطوط القوية التي تشكل هويتها في المستقبل ، و من ثمّ ، فإن اللغة هي تلك الخاصية الإنسانية التي تعكس العقل الجمعي لفئة من البشر ، وتعبر عن رؤيته ، و إذا كانت الهوية في الحقيقة و الذات والماهية...فإنه يمكن القول دون أن يكون ثمة افتعال أن اللغة تعدّ صورة حيّة لحقيقة أصحابها وذاتهم و ماهيتهم) . [23]

تصريح آخر لـ " عز الدين صحراوي " يؤكد لنا العلاقة الوطيدة القائمة ما بين اللغة و الهوية ، و كذا هذه التأثيرات التي قد تكون ظاهرة أو خفيّة ، لكن نتائجها تكون واضحة ملموسة ، فكون اللغة قادرة على توحيد مجموعات بشرية في إطار كيان موحّد ، فذلك قد يبرهن على مدى أهمية هذا العنصر و التأثير الذي يمارسه على هوية الجماعة ، و في نفس السياق ، يقول :

(لا يوجد شعب أو أمة لا تمتلك لغة ، إن اللغة هي الشرط الأساسي الذي يعني انتقاؤه انتقاء أمة كما يقول فلاسفة الرومان (Sine qua non) إنها بهذا المعنى أحد المقومات الأساسية التي بدونها لا مجال للحديث عن مفهوم المجتمع و الهوية الوطنية) . [24]

هذه هي الصورة العامة التي تبدو عليها اللغة في علاقتها بالهوية ، و لكن ما مدى تفاعلها مع هوية المجتمع الجزئري ، وماالخصوصية التي أفرزتها على مستوى الهوية ؟

إن اللغة قادرة على إحداث آثار واضحة على مستوى هوية المجتمع ، كما تذهب إليه « لطيفة إبراهيم خضر » بقولها : (تعتبر اللغة هي المؤشر الأول للهوية الثقافية القومية ، فإذا فقد شعب لغته القومية ، فقد هويته الثقافية و فقد شعوره بالإنتماء القومي ، و إنّ ضرب أيّ هوية ثقافية يبدأ بضرب اللغة) . [25]

هكذا ، نقول أن المجتمع الجزائري باعتماد اللغة العربية ، يكون قد اختار عنصرًا قويا من عناصر تشكل الهوية ، هذه اللغة التي ستعطي هوية ذات طابع إسلامي عربي ، و دفاعا متميزًا للشخصية الوطنية . ذلك ما نلمسه من خلال الارتباط الرسمي للدولة بمنطقة الجامعة العربية كعضو رسمي ، و العديد من المنظمات الإسلامية ، و هذا يعدّ مؤشرا على المرجعية الهوياتية المتبناة من طرف المجتمع .

3- الثقافة

يعرف « عبد الرحمان بسيسو » الثقافة : (بأنها طريقة الحياة التي تتمكن جماعة بشرية من تأسيسها ، لتكون مقبولة من طرف جميع أفراد الجماعة ، و هي طريقة تتضمن أساليب الإدارة وآلياتها و نمط التفكير و آداب السلوك و المعتقدات أو منظومة الأخلاق و القيم التي تحكم الجماعة) . [26]

إن هذا التعريف بما يتضمنه من إشارات إلى مجموعة من العناصر ، يحيلنا إلى مفهوم الهوية ، و بذلك يدفعنا هذا التعريف ل لإعتقاد بوجود تلك العلاقة القوية القائمة ما بين مفهومي الثقافة و الهوية ، ذلك ا لإعتقاد الذي سيتركز أكثر من خلال ما يشير إليه « حسن غامري » بقوله : (و يتضح من خلال تحليل الثقافة و المجتمع ، أن الثقافة تعني عند الأنثروبولوجيين الأنماط المختلفة من السلوك و التفكير و المعاملات التي اصطلحت عليها الجماعة في حياتها ، و التي تناقلتها الأجيال عن طريق الاتصال و التفاعل الاجتماعي ، و الثقافة هي ما يتعلّمه الأجيال بعضها عن بعض) . [27]

هذا ما يجعلنا نقول بأن عنصر الثقافة بما يتميّز به من ميكانيزمات يتضمن ذلك التواصل الذي يجب أن يحدث بين الأجيال ، فالثقافة هي روح الهوية وهي مجموع الأنظمة المادية والروحية التي ابتكرها الإنسان لتحكم سلوكه فيما هو ذاهب إلى الإرتقاء بهويته وذاته .

نشير أيضا إلى تعريف قد يكون من بين التعاريف التي لاقت الإجماع من خلال ما أشارت إليه « فاطمة الزهراء سالم » بقو لها : (ولعل من أقدم التعريفات للثقافة و أكثرها ذيوعًا حتى الآن لقيمته التاريخية ، تعريف « إدوارد تايلو » و الذي يذهب فيه إلى أن الثقافة هي : (كل مركب غلى المعرفة و المعتقدات و الفنون و الأخلاق و القانون و العرف و غير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع) . [28]

إن الحديث عن مفهوم الثقافة بهذا الشكل ، يجعلنا نقول بأن الثقافة قد تكون بمثابة وجه آخر لمفهوم الهوية ، و هذا التعبير نلمسه من خلال ما جاء في تصريح « عبد العزيز بن عثمان التويجري » بقوله : (و الثقافة ليست مجموعة من الأفكار و لكنها نظرية في السلوك بما يرسم طريق الحياة إجمالاً ، و بما يتمثل فيه الطابع العام الذي ي نطبع عليه شعب من الشعوب ، و هي الوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تتميز بها عن غيرها من الجماعات ، بما تقوم به من العقائد و القيم و اللغة و المبادئ و السلوك و المقدسات و القوانين . [29]

بهذا ، فإن الثقافة تعدّ روح الهوية و القاعدة التي تقوم عليها و تأكيدًا لذلك ، تشير « لطيفة إبراهيم خضر » بقولها : (فإن الثقافة فهي التي تصنع المجتمع ، و تصنع ملامحه و هويته وتماسكه ، فهي مفهوم حركي ، تتفاعل مع الزمان وبالتالي مع التاريخ . [30] و تضيف أيضا : (تركز الثقافة على بعد هام و هو الخصوصية كما جاء في تعريف اليونسكو ، حيث يمكن تمييز ثقافة مجتمع عن أخرى . [31]

و بذلك يبرز هذا التداخل القائم ما بين المهام التي قد تؤديها الهوية بما تقوم به الثقافة لاشتراكهما في العديد من الآثار و التي تظهر ملامحها جليّة على المستوى العام للجماعات ، وفي ذلك يشير « إسماعيل ملحم » بقوله : (فإن الثقافة تبقى أحد أهم الأسباب التي تحفظ لأمة من الأمم تماسكا و تحميها من الإنحلال ، و بالثقافة تحافظ الأمم على تماسكها . [32] فنجد « إسماعيل ملحم » يشير صراحة إلى عنصر الثقافة الذي له علاقة مباشرة بتماسك الأمة ، وبذلك فهو يؤكد على التداخل القائم ما بين الهوية و الثقافة و إن كانت الثقافة تبقى كعنصر من بين عناصر الهوية ، و تأكيدًا لذلك ، يقول « مالك بن نبي » (هكذا هو الأمر في كل الأوقات الصعبة في التاريخ ، الثقافة هي التي تكون طوق النجاة للمجتمع حين يتعرض لخطر الغرق . [33]

هذا ما يجعلنا نقول بأن الثقافة أحد الأسس القوية للهوية، لأنّ الوظيفة الأساسية لثقافة ما في حياة مجتمعها كونها وسيلته الرئيسية في الإبقاء على حياته و شخصيته ، و من هنا كانت الثقافة مقوما أساسيا من مقومات الشخصية للجماعة ، و عليه فإن الأمة وشخصيتها هي مفهوم ثقافي في الأساس و هي مكون من مكونات الهوية أيضا .

فلهذه المهام التي تؤديها الثقافة في حياة الأمة ، باعتبارها عنصرًا أساسيًا من عناصر الهوية ، يقول « عبد العزيز التويجري » : (ثمّة علاقة وثيقة بين الهوية و الثقافة ، بحيث يتعذّر الفصل بينهما ، إذ أنّ ما من هوية إلاّ و تختزل في ثقافة ، فلا هوية بدون منظور ثقافي ، والثقافة في عمقها هوية قائمة الذات) . [34]

فبالرغم من العناصر المتنوعة التي تشكل وحدة هوية الأمة ، إلاّ أن هذه الخصوصية الثقافية ، للمجتمع الجزائري قد تلوّن هذه الهوية بألوان تتفق من حيث لونها بالطابع العام المميّز لهذا اللون و تختلف عن غيرها من حيث تدرجات هذا اللون ، لتستقرّ في درجة تمثل هذه الخصوصية .

و في إطار الحديث عن الخصوصية الثقافية ، نشير إلى مفهوم التراث و الذي يعرفه « محمد سليمان حسين » قائلا : (التراث بمعناه الواسع هو ما خلّفه السلف للخلف من ماديات ومعنويات أيّا كان نوعها ، و بمعنى آخر هو كل ما ورثته الأمة و تركته من إنتاج فكري وحضاري ، سواءً فيما يتعلق بالإنتاج العلمي ، بالآداب ، بالصورة الحضارية التي ترسم واقع الأمة و مستقبلها ، و هذا يعود إلى بدء المعرفة الإنسانية للكتابة بأشكالها و أساليب التعبير بأنواعها سواءً الأثرية أو فيما سجّل في وثائق الكتابة) . [35]

بهذا التعريف ، يمكننا أن نلمس خصوصية تراث المنطقة ، نظرا لقدم تواجد البربر بشكل عام على هذه الأرض . و بذلك فجميع التجارب التي عاشتها شعوب المنطقة و ما استخلصته من عبر و حكم عبر العصور ، يدخل ضمن التراث المحلي للمنطقة . هكذا فإن تجليات الثقافة في ملامح الأمة يتضمن الموروث الثاقفي بجميع أشكاله و الذي بقي حيّا في ذاكرة الأجيال المتعاقبة ، و عن أثر التراث ، يقول حسن الوراكلي : (لا جدال في أن للتراث أثره العميق في حياة الجماعات و الأفراد سواء على مستوى النظر أو على مستوى الفعل) . [36] و مهما يكن ، فإن التراث ذاكرة الأمة ، و له أثر مهم على سلوك الفرد و الجماعة ، و تبعًا لخصوصية هذا التراث وارتباطه بالفضاء الجغرافي و التاريخي ، فسيفرز خصوصية ما على مستوى سلوك الجماعة ، و يلوّن ثقافتها و هويتها بخصوصية ما .

و إذا رجعنا إلى الأسرة الجزائرية ، نجد « العماري الطيّب » يقول : (داخل الأسرة الجزائرية ، تأخذ القيم الروحية و الأخلاقية مكانا هاما بالمقارنة إلى القيم المادية). [37] و في نظام قيم الأسرة الجزائرية يبدو أن كل شيئ ينصب حول الشرف ، كما يقول « محمد شقرون » (فالرأسمال الرئيسي الذي كان ينظم العلاقات بين أفراد الجماعات العربية هو العرض أو الحرمة زيادة على المروءة). [38] من هنا ، يرصد لنا « الطيب العماري » إحدى أهم القيم التي قد تتقدم عن غيرها و المتمثلة في الشرف في جميع تمظهراته سواء عبّر عنه الكاتب بالعرض أو الحرمة .

إن ملامح خصوصية المجتمع الجزائري تتمثل أساسًا في مجمل إنتاجه الفني كالزخرف على الزربية و الخزف ، و ما تمثل في الوشم و ما يمثله من رموز ، إلى غاية الرقصات الشعبية و التي تحاكي مظاهر حياة المجتمع في الحرب و السلم ، و هذا يعكس خصوصية الشخصية الجزائرية ، فيقول « فيصل شيخاني » : (أما الأعراف فهي ما تعارف الناس عليه و سلكوا مجالاتها أو هي أطراد سلوك الأفراد في مسألة بعينها على نحو معين إطرادًا مصحوبًا بالاعتقاد في التزام هذا السلوك ، و كان العرف هو المصدر الأوّل للقانون في المجتمعات القديمة ، لكنه أصبح في مهظم المجتمعات الحديثة مصدرًا من الدرجة الثانية ، لا يلجأ إليه إلاّ عند نقص التشريع). [39]

و تبعًا لما سبق ، فإن مجمل العناصر الثقافية التي أشرنا إليها ، أمدّت شعوب المنطقة بالخصوصية و التمييز على المستوى الثقافي ، وهذا التميز فهو يلون الهوية بخصوصية ما ، تتناغم مع الهوية العربية الإسلامية و لكنها تحتفظ لنفسها بمذاق خاص نظرا لارتباط الهوية بعنصر الثقافة ، وهذه العناصر ماهي إلاّ مؤشرات تؤكد على أن لسكان المنطقة خصوصية ما، قد تجسّد ت على مستوى هذا التراث المادي و الروحي بشكل عام ، و ما ذلك إلا دليل يحيلنا على ما يمكن أن تكون عليه الهوية المحلية من خصوصيات .

4- التاريخ

يعدّ التاريخ حاضنة قوية لمجمل عناصر الهوية ، فهو في حقيقته وجوهره سريان الماضي في الحاضر بما يعنيه هذا السريان من الوعي بالإطار الثقافي لهذا التاريخ و الذي يبلور ويكرس بأن الإنتماء العقائدي و الفكري للأمة يجسّده تاريخها ، لهذا يكون للتاريخ مفعوله من خلال ممارسة هذا التأثير في حاضر الأمة . وفي هذا السياق ، يقول « عبد المالك مرتاض » (ولما كانت أهمية التاريخ عظيمة ذات شأن ، فإن الأمم تظهر في تباين شخصيتها عبر الأزمان و الأحقاب البعيدة . [40]

بهذا يمكننا أن نؤكد على الأهمية التي يحظى بها التاريخ بالنسبة للأمم و الشعوب ، فهو بمثابة الفضاء الذي تعود إليه الأمم كلّما اختلفت موازينها لتتبين حقيقة شخصيتها الوطنية وفي هذا يقول : « حسن هيكل » (لا حياة لأمة إلاّ بإحياء ماضيها) . [41] لأن إهمال التاريخ سيعرض الأمة للخطر ، خاصة في اللحظات التي تكون فيها مقبلة على اتخاذ قرارات مصيرية ، و اللحظات التي تمرّ فيها الأمة بخيارات مصيرية .

ويعتبر « إليكس ميكشيللي » التاريخ كمقوم أساسي من المقومات التي تقوم عليها هوية الأمة ، و يقسم هذا العنصر إلى مجموعة من العناصر البسيطة ، و التي تعتبر بمثابة روافد مغيرة تمدّ الجماعة بهذا الإحساس با لإنتماء و الاعتزاز به ، و كذا تؤسس لهذه الصورة التي تكون عليها هوية الجماعة ، و كل ذلك في إطار هذا الرافد الكبير المسقى بالتاريخ . [42]

و بصدد الحديث عن الأهمية التي يحظى بها التاريخ في تشكيل هوية الجماعة ، يقول « عبد الرحمان صدقي » : (لامراء في أن التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية حتى ليصبح القول بأن الوطن هو تاريخ الوطن) . [43] و بهذا التعبير ، يضع الكاتب التاريخ وتاريخ الوطن على قدم المساواة أي لا معنى لوطن بدون تاريخ ، فالأمة لا تتشكل إلاّ من خلال تعايش أفرادها مع بعضهم البعض على أرض محددة عبر فترات زمنية .

بهذا يكون التاريخ بمثابة حجر الزاوية في مجال بناء هوية الجماعة ، و في هذا السياق ، يؤكد « عبد الرحمان الجيلالي » بقوله : (إنه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها ، و تعرف نفسها قائمة بنفسها إلا إذا كانت حافظة لتاريخها ، وواعية لما فيها ، متذكرة لمب ادئها ، متسلسلة لأنسابها ، خازنة لآدابها ، ممّا و يقوم به إلاّ على التاريخ الذي هو الوصل بين الماضي و المستقبل و الرابط بين الآنف و المستأنف) . [44]

من هنا ، يمكننا القول بأن الأمم لا يمكنها بأي حال من الأحوال الاستغناء عن تاريخها سواء تعلق الأمر بالتأسيس لهويتها أو الحفاظ و الدفاع عنها ، لذلك يصرّح « حسن الوراكلي » بقوله : (كان التاريخ مقوما من أبرز مقومات الهوية الثقافية للأمم و الشعوب) . [45]

بهذا فإن فإن هوية الجماعة مرتبطة ارتباطا و ثيقا بتاريخها ، و لا يمكن أن نتصور هوية خارج البعد التاريخي للجماعة ، و التاريخ أيضا له تأثيره في توجيه سلوك الجماعة بالشكل الذي يحدّد ملامح هويتها انطلاقا من المرجعيات الفكرية و العقائدية التي يحتفظ بها ، و في هذا السياق ، يشير « زكي السحري » بقوله : (التاريخ عنصر هام من عناصر الثقافة و التراث و هو أساس من أسس تكوين الهوية لأي شعب أو أمة ، فهو سجل لنشأة الشعب و تكوينه و نضجه ، و يحوي قائمة بأعماله و إنجازاته وانتصاراته ، و هو مخزن الخبرات و التجارب ، فالتاريخ عامل قوى في مفهوم الهوية . [46]

و ذا كان التاريخ مرتبطا بالهوية ، فلا يمكننا أن نستثني هذه العلاقة فيما يخص المجتمع الجزائري ، حيث يقول « عبد المالك مرتاض » : (و التاريخ في الجزائر ، ممّا كان له أثر واضح في حفظ الشخصية الجزائرية و تعميق أصالتها ، إنّنا اليوم حين نبحث عن أنفسنا وأصولنا ، نفزع إلى التاريخ الوطني و إلى حوادثه الجسام بوجه خاص ، لنرى في هذا التاريخ أنفسنا ماثلة و شخصيتنا الوطنية قائمة) . [47]

و حتى و إن انضوى الشعب الجزائري تحت مسمى الهوية العربية الإسلامية باعتبارها هوية الأمة جمعاء ، إلا أن تاريخ هذه المنطقة ، يحدّد خصوصية هذا الشعب عن غيره من شعوب الأمة ، و ذلك لاختلاف تاريخ منطقة شمال إفريقيا و الجزائر خصوصًا عن تاريخ غيرها من شعوب هذه الأمة ، فالتراث الحضاري الذي شكل وجدان الجماعة في هذه البيئة الجغرافية ، يختلف عنه في البيئات الأخرى من خلال الحضارات التي استوطنت المنطقة كحضارة الفنقيين و الرومان والبزنطيين والوندال على مرّ تاريخ المنطقة .

فهذه المنظومة الحضارية التي يحتفظ بها سجل الأمة و تاريخها ، تختلف فيها عن غيرها من الشعوب ، وبذلك تكون شخصية وهوية الجزائري ذات خصوصية ، وفي ذلك يقول « عبد المالك مرتاض » : (فالتاريخ حلقات من الحياة و الحوادث و الحروب ، و الشخصية الوطنية سلسلة طويلة تمتدّ مع هذه الحلقات التاريخية و ترتبط بها) . [48]

نصل إلى التأكيد على ملامح الهوية الجزائرية و ما انعكس منها على شخصية الأفراد ، حيث نجد « بن عبد الله محمد » يشير إلى سمتان أساسيتان و مركزيتان في سلوك الجزائري بشكل عام بقوله : (فمن خلال الحياء و الشرف تتحدّد نظرة كل مغاربي إلى العالم و تجعل سلوك الفرد منسجمًا تمامًا مع المطلب الجماعي و بالتالي فهو حينما يبدي استحياء من الغير يسعى في الغالب إلى تجنب لوم الجماعة) . [49] فالحياء سمة أساسية و جوهرية في شخصية الجزائري .

و من بين السمات المرتبطة بالشخصية الجزائرية ، نجد « بن عبد الله محمد » يقول : إنّ (الفحلوي) هو المكون الأساسي للشخصية القاعدية العربية ، و (الفحلوي) هو شخص سريع التكيف ، و يستوعب كل جديد و بحذر نسبي و هو مستعد دائما لإبداء وفاق سطحي و تودّد سريع) . [50]

أيضا هناك (سمة الصراحة ، الإنطواء على الذات ، العمل في صمت ، الإندفاع . الإنفعال ، الحساسية و عدم تقبل النقد ، التعصب ، و التشبث بالرأي ، الإعتماد على النفس ، نشد الكمال والحلول الجذرية) . [51] ذلك ما نلمسه عند « عبد الرحمان الميلي » قائلاً : (و أمّا أخلاق البربري ، فإنه فلاح مقيم ، عامل كنّاز ، تاجر حاذق ، حربي شجاع ، وقد يكون لصا متمردًا ، حار منتقم ممن أغضبه بأكثر ممّا يستحق ، حرّ متطرّف في الحرية إلى درجة أنه يكره من يترأسه ، و يتقزز منها على أن تسنح له الفرصة لهدم تلك الرياسة وتخريب سلطانها) . [52]

يمكننا أن نقول في ختام مداخلتنا حول خصوصية الهوية الجزائرية أن الهوية الجزائرية استمدّت العديد من مقوّماتها من الهوية العربية الإسلامية ، ذلك ما أوجده الإنتشار الواسع للإسلام في المنطقة ، و لكن على الرغم من ذلك ، تبقى لشعوب المنطقة خصوصيتها التي تلّونت بها و المرتبطة بالبعد الجغرافي المتميز و كذا البعدين التاريخي و الحضاري للأمة الجزائرية .

الهوامش

1- محمد الزحيلي : زظيفة الدين في الحياة و حاجة الناس إليه ، طبعة خاصة ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، سوق عكاظ ، 1991 ، ص 32 .

2- جان فرانسوا دورتيه : معجم العلوم الإنسانية ، ترجمة جورج كتورة ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع ، بيروت ، 2008 ، ص415 .

3- إبراهيم لطيفة خضر : هويتنا إلى أين ؟ ط 1 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 2009 ، ص 246 .

4- جان فرانسوا دورتيه : مرجع سابق ، ص 415 .

5- بن عبد الله محمد : سيكولوجيا الشخصية المغاربية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2010 ، ص72.

6- المرجع نفسه ، ص 73 .

7- محمد الرحيلي ، مرجع سابق ، ص 21 .

8- المرجع نفسه ، ص 83 .

9- محمد صالح الهرماسي : مقاربة في إشكالية الهوية في المغرب العربي المعاصر ، دار الفكر ، دمشق ، 2001 ، ص 96 .

10- إبراهيم لطيفة خضر ، مرجع سابق ، ص 247 .

11- بن عبد الله محمد ، مرجع سابق ، ص 77 .

12- المرجع نفسه ، ص 78 .

13- سليمان عشراتي : الشخصية الجزائرية ، الأرضية التاريخية و المحددات الحضارية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007 ، ص 36 .

14- عبد المالك مرتاض : أصالة الشخصية الجزائرية ، مجلة الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ، الجزائر ، العدد 8 ، ماي ، جوان 1972 ، ص 225 .

15- المرجع نفسه ، ص 226 .

16- الشريف كرمة ، اللغة العربية وعلاقتها بالهوية ، مجلة حوليات التراث ، جامعة مستغانم ، العدد 6 جوان 2006 ، ص42 .

17- لطيفة إبراهيم خضر ، مرجع سابق ، ص 244 .

18- الشريف كرمة ، مرجع سابق ، ص 43 .

19- عز الدين صحراوي : اللغة العربية في الجزائر ، التاريخ و الهوية ، مجلة كلية الأداب و العلوم الإنسانية والإجتماعية ، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الإجتماعية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد الخامس ، جوان 2009 ، ص 9 .

20- المرجع نفسه ، ص 6 .

21- بن عبد الله محمد ، مرجع سابق ، ص 78 .

22- الشريف كرمة ن مرجع سابق ، ص . 45 .

23- المرجع نفسه ، ص 46 .

24- عز الدين صحراوي ، مرجع سابق ، ص 46 .

25- لطيفة إبراهيم خضر ، مرجع سابق ، ص 246 .

26- عبد الرحمن بسيسو : الثقافة و معركة الدفاع عن الهوية ، وزارة الثقافة ، غزة ، أفريل 2005 ، ص 6 .

27- محمد حسن غامري : المدخل الثقافي في دراسة الشخصية ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 1989 ، ص 13.

28- فاطمة الزهراء سالم : نحو هوية ثقافية عربية إسلامية ، دار العالم العربي ، القاهرة ، 2008 ، ص30 .

29- عبد العزيز بن عثمان التويجري : الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة ، مكتبة الأسد الوطنية ، دمشق ، جويلية ، 2010 ، ص 3 .

30- لطيفة إبراهيم خضر ، مرجع سابق ، ص 257 .

31- المرجع نفسه ، ص . 258 .

32- إسماعيل ملاحم : الخصوصية في الثاقفة القومية العربية ، منشورات اتحاد الكتاب ، سوريا ، 1996 ، ص 16 .

33- مالك بن نبي : مشكلات الحضارة من أجل التغيير ، دار الفكر ، دمشق ، 1995 ، ص 55 .

34- عبد العزيز بن عثمان التويجري ، مرجع سابق ، ص 5 .

35- حسين محمد سليمان : المسلمون و أسئلة الهوية ، جمعية البعد الإسلامي ، المغرب ، 2000 ، ص . 59 .

36- حسن الوراكلي : المسلمون و أسئلة الهوية ، جمعية البعث الإسلامي ، تطوان ، 2000 ، ص 50 .

37- العماري الطيب : التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري و إشكالية الهوية ، مجلة العلوم الإنسانية و الإجتماعية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد 5 جوان 2009 ، ص 432 .

38- المرجع نفسه ، ص . 433 .

39- محمد فيصل شيخاوي : القيم و الأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية ، مطبعة اليمامة ، حمص ، 1997 ، ص 23 .

40- عبد المالك مرتاض ، مرجع سابق ، ص. 217 .

41- عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، الجزء الأول ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص 11 .

42- إليكس ميكشيلي : الهوية ، ترجمة علي وطفة ، دار الوسيم للخدمات الطباعية ، دمشق ، 1993 ، ص 12.

43- عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 11 .

44- المرجع نفسه ، ص 11 .

45- حسن الوراكلي ، مرجع سابق ، ص 70 .

46- زكي السحري : دور التاريخ في تشكيل الهوية العربية ، مجلة العلوم الإنسانية و الإجتماعية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد 6 ، جزان 2010 ، ص 4 .

47- عبد المالك مرتاض ، مرجع سابق ، ص 127 .

48- المرجع نفسه ، ص 217 .

49- بن عبد الله محمد ، مرجع سابق ، ص 59 .

50- المرجع نفسه ، ص 30 .

51- المرجع نفسه ، ص 33 .

52- مبارك بن عبد الرحمان الميلي : آثار العلامة مبارك الميلي ، دار الرشيد ، الجزائر ، 2012 ، ص 95 .